الاقصوصـــــة الفرنسية

من عهد جورج صاند إلى أميل زولا

تمهيد

لقد بلغ فن الأقصوصة الفرنسية من جورج صاند إلى أميل زولا حد الاتقان، وارتفع به الكتاب إلى أسمى مراتب الابداع، فنال إعجاب معاصريهم: وانتقل هذا الأعجاب إلينا، إذ أننا لا نستطيع أن نقرأ أقصوصة من أقاصيصهم حتى نؤخذ بسحر بيانهم، وما أودع في عباراتهم من تحليل نفساني، وخيال رائع، والوصول إلى أعماق ما في النفس، والتعبير عنه بألفاظ رقيقة، وأسلوب عذب سائغ.

وقد دعانا اختيار الترجمة لهؤلاء الكتاب في ذلك العهد ما أتوا به من تجديد في القصص، وما ارتفعوا بخيالهم إلى ذروة الفن. وإن كنا لا نستطيع أن نغمط حق أمثال (موباسانت) (maupassant) والكتاب الذين تلوه فيما زودونا به من فنات أقلامهم، مما لا يمكننا إنكاره عليهم، إلا أن القالب الذي صبوا فيه مسبائك أسلوبهم، ألبس لباس سابقيهم، وفي الواقع أن أجود ما جادت به قرائح الرجال المتأخرين، يعد معدما للكتاب في الفترة التي وصلنا اليها الآن.

وهؤلاء الكتاب يختلفون اختلافا بينا من وجهة النظر والأسلوب والمواضيع، فبينما نرى بعضهم خياليا ينسج لك من خياله قصة تقرأها له، ويصورها لك صورة جميلة صبوكة حبكا فنيا يتركك تحسبها حقيقة، بينا نرى البعض الآخر لا يعرف هوادة في تقرير الحقائق، ومتطرفا في تعديم المذهب الواقعي (Realism). غير أن الكل عرف كيف يكتب ما يجول بخاطره وكيف يجني أزهار هذا الادب الجديد؟

ويرجع الفضل في هذا النجاح الكبير الذي لاقته الأقصوصة عند ظهورها إلى الجرائد السيارة، فانها اختصت هذا الفن بمجهود كبير، وشجعت كتابه حتى وصلوا به إلى السماكين، ومن عظيم عنايتهم به أن خصصوا له صحفاً من جرائدهم، وجعلوه باباً مستقلا وجد تشجيعاً من الجمهور، فقد لمسوا فيه نوعاً طريفاً جديداً غير ما تعودوه من قراءة الأخبار، فقد كانت مادتها مملة للجمهور، فأراد أصحاب الصحف تنويع الأبواب، لتقدم لقرائها موضوعاً جديداً للتسلية، وبينما كانت بعض الجرائد تعتمد على القصص المسلسلة، كانت كبريات الصحف

والممتاز منها تعمد إلى القصة الصغيرة ، فيجد فيها قراؤها لذة وبهجة ، كما وجد فيها المتأدبون غذاء لأفكارهم ، وإرواء لظمئهم ، فكانت للجمهور كائدة بها مختلف الأطعمة ، فيتناول كل ما يستسيغه .

١ — جورج صاند (Jeorge sand) ١٨٠٤ — ١٨٧٦

تلك الكاتبة الدائمة الصيت ، التي ظهر في عصرها (ميريمه) (merimée) وأجاد في الكتابة القصصية ، وزود قراءه بثمر شهي ناضج ، وفي نفس الوقت كان يعاصرها في أمريكا الكاتب المعروف (بوى) (Poe) ، وقد نسج على منوال الكتاب الفرنسيين في هذا النوع الجديد من الأدب ، إلا أنه لم يلاق من الأمريكيين تشجيعاً ، ولم يقدروا قيمة ابتكاره ، ولذا انفرد باتقانه والأجادة فيه . الكتاب الفرنسيون ، فهم الذين أتقنوا صناعته ، وتحديد غاياته ومراميه ، ولذا عد هذا النوع أيضا (أي فن القصة القصيرة) فناً إفرنسياً حتى أن جورج صاند ، هذه الكاتبة ذات الحذق الخارق للعادة ، كانت تستلهم وحي حبها في كتابتها القصصية ، فلذا كانت تخرج عصارة تحليل نفساني عميق ، وفلسفة عالية ، ولذا كان تأثيرها على المشاعر والعواطف أكثر وقعا من بقائها على صبغتها الأدبية ، وقد نالت من معاصريها إعجاباً ، وفي أوساطهم تقديراً عظيما ، وشهرة بالغة .

وقد اشتهر من بين قصصها قصة (المركيزة) (The marquise) التي عبرت فيها عن دقيق شعورها ، وصادق وجدانها ، وهي لم تقتصر على تحليل أخلاق تلك الطبقة الأرستوقراطية ، التي من بينها تلك السيدة العجوز التي أحبت (ممثلا) إلى حد الهوس والجنون ، ولكنها رغم هذا الحب القوي ، وتلك العاطفة المتقدة ، كانت تمثلها بشدة عاطفتها وظهورها أمام الجمهور ، تظهر الصلف كما هي عادة تلك الطبقة ، وقد تسللت جورج صاند إلى أعماق تلك المركيزة بحذق ومهارة ، فصورت لنا كيف يكون لهوى المسرح في برودة الجمال المسن التمرس ، فتركت القارىء — بقوة بيانها ، وسحر بلاغتها — يهتز من دقة اللاحظات التي أبدتها في أسلوب رقيق ، وألفاظ عذبة مسترسلة ، وفي هذا يتجلى فن القصة القصيرة ، في خيال لذيذ يصل بالقارىء إلى حد الابداع .

٢ — جول جانن (Jules Janin) ١٨٠٤ — ١٨٧٤

أحد النقاد الأفذاذ ، وهو الذي ساعد جورج صاند فيما وصلت إليه من شهرة ، وكان حرر جريدة (Journal des Débats) إحدى أمهات الجرائد الفرنسية العظيمة وأحد سحرة الأقلام ، يحركها بين أنامله كما يشاء ، ويخط بها ما يبغي ، يدبج بسهولة كما يتكلم ، ذو شخصية بارزة وذكاء متوقد متجدد ، وخيال سام ، وشعور رقيق عال متدفق .

وقد ولد ممثلا يبدى إيماءاته وحركاته على القرطاس على خشبة المسرح ، انغمس فى الحياة البوهيمية حتى كان من أمرائها ، ويمكن لك بدون عناء أن تستشف من أقاصيصه ما يود أن يصوره من المناظر الرائعة البهيجة ، بأسلوب خلاب ، وخيال واسع النطاق ، وسلاسة فى اللفظ ، وسهولة فى التعبير مما يبعث على الفخر به .

٣ — (أميل سوفستر) (Emile Souvestre) ١٨٠٦ — ١٨٥٤

وهذا محرر آخر فى الجرائد ، ذو موهبة فياضة فى الأدب ، ومن رأيه : أن على المحرر أن يواصل التجديد ، ويقدم لقراء القصص الشائقة لتسليتهم فى ساعات فراغهم ، ويتحتم أن تكون قصيرة بقدر تلك الفترات ، لتقرأ فى الاجتماعات العائلية فى المساء ، وفى الأوقات التى تصل الهجوع بالنوم ، وهو من (بريتون) ؛ وقد جاهد جهاداً شاقاً طويلا فى باريس ، قبل أن يصل إلى شهرته بأقصوصته (الفيلسوف تحت السقف) ، ولو قرأت له أقصوصة (العم موريس) لبلغ بك التأثير حداً لا مثيل له ، وقد انصب همه على دراسة أحوال الأوساط الوضيعة والتغلغل فى مسراتها وأحزانها الدفينة ، وصدق مشاعرها ، وتمسكها بعقائدها الدينية التى نبذها إذ ذاك « فتيان العصر » . وقد كان لنشأته فى (بريتون) ودراسته لطرائق المعيشة والعادات فيها ، طابع خاص من تصوراته وكتاباته ، ذاعت بشهرة أقاصيصه إلى عرض العالم .

٤ — (الفرد دى موسيه) (Al. fred des misset) ١٨١٠ — ١٨٥٧

إنه لمن السهل أن تدرك من بين كتابات هذا الخلق الشديد الارتباك مبلغ حبه وشغفه العظيمين للبساطة ، وإنه ليقص عليك تاريخ حياته فى أقصوصته (العصفور الأبيض الأسود) وهى أحسن مجاز رائق ، فى أى أدب قرأت ، فيأتى لك فيه على نوع من الدير غير عادى ذى نباهة عظيمة ، وما هو إلا عصفور أسود يحاول أن يظهر أبيض ، بواسطة المساحيق والدقيق ، وربما يعنى بهذا العصفور جورج صاند التى عاشرها ردحاً قليلا من الزمن فى مدينة البندقية ، وانفصلا حيث لم تحل لها العشرة ، لأن كلا منهما معجب بنفسه .

وإن كان (موسيه) يبالغ دائماً فى كتاباته إلا أنه يتذرع بالصدق فى تقرير الحقائق ، وإن عد (هوجو) ذر الشعر الغنائى العصرى ، فإن موسيه لا مشاحة هو البلبل الفرد ، ولا تفرقة فى نثره وشعره من وجهة الاجادة

ويكفى أن تقرأ أقصوصته (كاميل) الشائقة ، تدرك أن (موسيه) — الذى مات فى أوج شهرته صريع الشراب — كان من أحسن الناس طبيعة قلب ورقة إحساس .

محمد بهجت
بقسم المساحة بالقاهرة